# الحجج الغائيّة[1]

ستيفن إيفانز[2]

الحجة الغائيّة[3] هي، بمعنىً عام، حجة كونية[4] أيضًا، فهي تنطلقُ من وجود الكون ولكنّه لا تنطلقُ فقط من وجوده بل من صفته كَونًا مُنظّمًا. غالبًا ما يُسمّى هذا الدليل بـــدليل التصميم[5]. كما الدليل الكونيّ، ترجِعُ جذورُ الدليل الغائيّ إلى اليونان القديمة، وقد وُجِد هذا الدليل بشـكلٍ جليٍّ خلال القرون الوسطى حيث أورده أكويناس كخامس طريقٍ من «الطرق الخمسـة» لإثبات وجود الله. بلغَ الدليل ذروة شُـهرته في القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر. طوّرَ ويليام بيلي، وهو عالِمُ لاهوت إنكليزي، نموذجًا شهيرًا على وجه الخصوص من هـذه الحجة. أمّـا في النقاش المعاصِر، فقد دافع عنها ريتشـارد تايلر، فريدريك روبرت تينانت، وريتشارد سـوينبورن. طوّر تينانت وسوينبورن تحديدًا الحجةَ ليس كحجة قياسية[6] صارم بل كمحاولةٍ لإظهار أرجحيّة الإيمان بالله.

---

1. Evans, C. Stephen, and R. Zachary Manis. "Telogical Arguments." In *Philosophy of Religion: Thinking about Faith*, 2nd ed., 77-87. Madison, WI: InterVarsity Press, 2009.

٢. أستاذ الفلسفة والعلوم الإنسانية في جامعة بايلور (Baylor University)

3. teleological argument

4. cosmological argument

5. the argument from design

6. deductive

تنطلقُ الحجة الغائيّة من حقيقة أنّ العالَمَ الطبيعي يُظهرُ، على ما يبدو، النظامَ أو التصميم الهادفَين، وتستنتجُ أن مُسبِّب العالَمَ ينبغي بالتالي أن يكون مُصمِّمًا ذكيًّا. يُعدُّ النموذج الذي قدّمه أكويناس عن الحجة مثالًا جيدًا:

«يُؤخَذُ الطريق الخامس من إدارة العالم. إننا نُلاحظ أنّ الأشياء التي تفتقدُ للمعرفة، كالأجسام الطبيعية، تعملُ لغاية، وهذا واضحٌ من عملها دائمًا» أو على الدوام تقريبًا- بالطريقة نفسها لإحراز أفضل نتيجة. وعليه، من الواضح أنها تُحقِّق غايتها ليس مُصادفةً بل عن تصميم، ولكن لا يُمكنُ لشيءٍ يفتقدُ المعرفة أن يتحرّك نحو الغاية إلا إذا كان مُوجَّهًا من كائنٍ يتحلّى بالمعرفة والذكاء، كما السهم الذي يصوِّب وجهتَه رامي السهام. وعليه، يوجدُ كائنٌ ذكيٌّ، ومن خلاله يتمُّ توجيهُ جميع الأشياء الطبيعية نحو غايتها، ونُسمّي هذا الكائن الله.»

يدّعي أكويناس هنا أنّ موجوداتٍ كثيرة في الطبيعة تتحرّكُ لغاية. رُغم أنّه لم يُقدِّمُ أمثلة إلا أنّه ليس من الصعب فعلُ ذلك. على سبيل المثال، يبدو أنّ غالبية الحيوانات هي بمثابة آلاتٍ ذاتية التحكُّم صُمِّمتْ للحفاظ على وجودها والتكاثر. تُساهم كثيرٌ من أعضاء الحيوانات في تحقيق هذا الهدف الإجمالي من خلال تحقيق غايةٍ أو هدفٍ خاص، فالرئتين تستبدلُ ثاني أكسيد الكربون بالأوكسجين والقلب يضخُّ الدم في أنحاء الجسد.

يذكرُ أكويناس ميزتين في الطبيعة تُشيران معًا إلى التصميم: الأولى هي النظام، فالأشياء في الطبيعة «تتصرّفُ دائمًا، أو على الدوام تقريبًا، بالطريقة نفسها»، والثانية هي القيمة فالنظام في الطبيعة يُسفِرُ عن نتائجَ جيّدة. سوفَ نُطلِقُ على هذا النوع من النظام اسمَ «النظام النافع[1]». من الواضح أنّ أكويناس

1. beneficial order

يعتقــدُ أنّ العملية الدوريــة والمنتَظَمة التي تُحقّقُ نتيجةً نافعــة هي دليلٌ على أنّ الإنســان يتعاملُ مع التصميم الذكيّ. يقولُ أكويناس إن النظام النافع لا يحصلُ عن طريق الصدفة.

ولكــن كيف يعــرفُ أكويناس ذلك؟ لمــاذا لا يُمكنُ أن تكــونَ العملياتُ المنتظمة التي تُسفِرُ عن نتائج نافعة وليدة الصدفة؟ اعترفَ مدافعون معاصرون عن الدليل، من أمثال تايلر وسوينبورن، أنه ليس من المستحيل منطقيًا أن تتحقّق هذه العمليات بالصدفة. وعليه، وفقًا لنظرتهما، يفشلُ الدليل في أن يكون بُرهانًا قياســيًا صارمًا. ولكن رُغم أنّه ربّما من الممكن أن تتحقّق هذه النتائج عن طريق الصدفة، إلا أنهما ادّعيا أن ذلك غير قابل للتصديق أو غير مُحتمل. وعليه، يُظهِرُ الدليل أرجحية أو معقولية الإيمان بالله: أي إنّ الإيمان بالله يوفِّرُ التفسير الأرجح للأدلة التي نُلاحظها. كثيرًا ما يُســمّى هذا النوع من الاســتدلال بـ«الاستنتاج بالتفسير الأفضل»[1].

إحدى الطرق (ولكن ربّما ليسَ الطريق الوحيد) للدفاع عن الادّعاء الحاسِم بأنّه من غير المحتمَل أن يكونَ النظامُ النافع نتيجةً للصدفة هو من خلال اللجوء إلى تجربتنا مع الكيانات المماثِلة. تُظهِرُ الآلاتُ المعقَّدة كالســاعات والكاميرات التوعَ نفسَــه من النظام المعقّد والنافع الذي تُظهِره الأشياء الطبيعية. نحنُ نعلمُ أنّ هــذه الآلات هي نتيجــة للتصميم الذكيّ، ومن المنطقيّ أن نســتنتجَ أنّه من الأرجح أن تُفسَّر الأشــياء الموجــودة في الطبيعة والمماثِلة لهــذه الآلات بطريقةٍ مُشابِهة. تمضي حجّة بيلي الشهيرة في هذا المسار بينما يُقدِّمُ كتابُ ديفيد هيوم تحتَ عنوان «مُحــاوراتٌ في الدِّين الطبيعــي» بيانًا معروفًا جيّدًا عــن الحجة على هيئة

1. inference to the best explanation

تشبيه[1]. عرضَ هيوم أيضًا الكثيرَ من الانتقادات على الحجة، وسوف نتناولُ بعضًا منها عمّا قريب.

من الجدير أن نذكرَ أنّه يُمكنُ تقسيمُ الأدلّة الغائية، كما الأدلّة الكونية، إلى أدلّةٍ تنطلقُ من الطبيعة ككل وأدلّةٍ تنطلقُ من أجزاء الطبيعة. تُحاوِلُ الأدلّة الأولى أن تُظهِرَ أنّ الطبيعة ككل ينبغي أن تُفهَم كمنظومةٍ غائيّة واحدة. أمّا الأدلّة الثانية، فإنّها تأخذُ وجودَ منظوماتٍ غائية مُحدّدة في الطبيعة كنقطة انطلاقها. تتمثّلُ ميزةُ الدليل «الكليّ» في أنّ الاستنتاج سوف يقودُ بوضوحٍ إلى وجود مُسبِّبٍ أحدثَ الطبيعة ككل. أمّا سيئةُ هذا الدليل فتتمثّلُ في أنّه سوف يكونُ من الصعب أن نُظهِر أنّ الكونَ ككلٍ يرومُ غايةً أو هدفًا ما. نعم قد يكونُ هذا هو الحال، ولكن لا يبدو وضحًا أنّه كذلك. بالتالي، من الأسهل الدفاع عن الدليل «الجزئي»، ولكن إذا لم يكن الفرد حذرًا قد يكونُ الدليل عُرضةً للاتّهام بارتكاب مُغالطة التركيب[2] حيث إنّه يصل إلى استنتاجٍ عن السبب وراء الطبيعة ككل من مُلاحظاتٍ حول صفة جزء/ أجزاء من الطبيعة. يُمكنُ تفادي المغالطة عبر حججٍ تستدلُّ بالتفسير الأفضل، ولكن كما سوفَ نرى يُمكنُ إثارةُ مخاوف حيال احتمالية النتيجة.

فلنقم الآن بصياغة بعض نماذج الدليل الغائيّ ونفحص مزاياها وعيوبَها. النموذج التالي هو نموذجٌ بسيط:

١. توجدُ في الطبيعة العديدُ من الأمثلة على النظام النافع.

٢. يُفسَّر النظام النافع بأفضل نحوٍ على أنّه نتيجة لوجود مُصمِّم ذكيّ.

٣. وعليه، من الأرجح أنّ الطبيعة هي نتاج مُصمِّم ذكيّ.

1. analogy

2. fallacy of composition

بأفضل حال، يُمكن أن تكونَ النتيجةُ مرجحة لسببين: ١) يتمُّ التوصُّل إلى استنتاج عن الطبيعة ككل من خلال مُلاحظة أجزاء من الطبيعة؛ ٢) من غير المؤكَّد أن يأتي النظام النافع فقط من الذكاء. تُركِّزُ أغلبُ انتقادات الدليل على المقدمة (٢). هل ينبغي أن نُفسِّرَ وجودَ النظام النافع في الطبيعة كفعلِ مُصمِّم؟ تُحوِّلُ الصياغات البديلة من الدليل الانتقادَ إلى مكانٍ آخر. على سبيل المثال، يمكن أن يُطرَح الدليل كالتالي:

١. تحوي الطبيعةُ العديدَ من حالات النظام.

٢. الكيانات المصمَّمة هي نتيجة لوجود مُصمِّم.

٣. وعليه، من الأرجح أنّ الطبيعة هي فِعلُ مُصمِّم.

هذه الصيغة تجعلُ المقدمة الثانية بمثابة حشوٍ في الكلام عمليًا، ولكنّ الناقد سوف يقومُ الآن بطرح التساؤل حول صدق المقدمة الأولى. هل إنّ ظهور التصميم في الطبيعة يُمثِّلُ تصميمًا حقيقيًا أم أنّه مُجرد تصميم ظاهري؟ إذا قرأنا المقدمة الأولى كما يلي: «تحوي الطبيعةُ العديدَ من حالات النظام الظاهري»، فإنّ صدقها يبدو غير قابلٍ للإنكار، ولكنْ عندها لن تكون الحجّة صالِحة. المقدمات لا تجعلُ الاستنتاج بأنّ الطبيعة هي فِعلُ مُصمِّم حتّى أمرًا مرجّحًا. تبقى المشكلة الأساسية في الكيفية التي يعرفُ الإنسان أنّ النظام النافع الذي نجده في الطبيعة ليس -على حدّ تعبير أكويناس- «تصادفيًا» ببساطة.

كما ذكرنا، تُحاولُ النماذج التشبيهية عن الدليل أن تُواجِه هذه المشكلة رأسًا. على سبيل المثال، قد نحتجُّ كالتالي:

١. الأشياء في الطبيعة هي شبيهةٌ بالآلات المصنوعة من قِبل الإنسان حيث إنّ أجزائها تعملُ معًا لتحقيق غايةٍ أو هدفٍ ما.

٢. الآلات المصنوعة من قِبل الإنسان هي نتيجة للتصميم الذكيّ.
٣. الآثار المشابِهة تميلُ إلى أن تمتلكَ أسبابًا مُشابِهة.
٤. وعليه، يُحتمَلُ أنّ الأشياء في الطبيعة هي نتيجة لشيءٍ شبيهٍ بالتصميم الذكيّ.

كما نُلاحِظُ من هذا، اللجوء إلى التشبيه قد يُنشئُ حجّة قائمة في ذاتها. كبديل، يُمكنُ توظيفُ الاعتبارات التي يُلجَأ إليها هنا لمؤازرة المقدمة الثانية القابِلة للنقاش في حُجّتنا الأصلية. عمومًا، يُمكنُ تقسيمُ الانتقادات الموجَّهة إلى الأدلّة الغائية إلى مجموعتين: تتضمّنُ المجموعةُ الأولى الانتقادات التي تُهاجِمُ نقاط قوّة الدليل من خلال الادّعاء بأنّ التصميم الذكيّ غير ضروري لتفسير النظام في الكَون. أمّا المجموعة الثانية من الانتقادات فهي تُركِّزُ على القيمة الدينية للدليل، وتتساءلُ إن كان المصمِّم الذكيّ الذي يستنتجه الدليل مُطابقٌ لله في الإيمان الديني. مُنِح النوعان من الانتقادات تعبيرًا تقليديًا في كتاب هيوم «مُحاورات في الدِّين الطبيعي».

فلنتطرّق أولًا إلى نموذج الهجوم الأول. يتناولُ هيوم الدليل بشكلٍ رئيسيٍ بهيئته التشبيهية، وعليه فإنّ العديد من انتقاداته تتمحورُ حول قوّة التشبيه بين النظام الطبيعي والآلات المصنوعة بشريًا. اعترَض هيوم، من بين الأمثلة الاعتراضية، أنّ الكون يُمثِّلُ ظاهرةً فريدة للغاية بحيث لا يمكن وضع فرضيات حول سببها. بما أنّنا لا نملكُ تجربةً تتعلّقُ بصناعة الكون، فليسَ لدينا إذًا أيّ وسيلة لاختبار الفرضيات البديلة عن سببه. ولكن إذا كان هيوم مُحقًا هنا، فلن تكون لأي حجة مبنية على التشبيه أيّ قيمة، لأنّ هيوم يدّعي في واقع الأمر أنّه لا يُمكننا الوثوق بتشبيه ما إلا إذا امتلكنا تجارب مباشرة ومُتكرِّرة حول موضوع

التشـبيه: وهو في هذه الحال الأكوان. ولكن إذا كانت لدينا مثل هذه التجارب المباشرة، فلن تكون هناك حاجة للتفكير الاستدلالي التشبيهي من الأساس.

ثمّة اعتراض أشـدّ، وهو ادّعاءُ هيوم بأنّ التفسيرات البديلة حول النظام في الكون هي مُمكنـة. لعلّ النظام في الكون مُتأصِلٌ بطريقةٍ ما في المادّة؛ لعلّ النظام في الكـون هو في الواقـع نتيجة لعملياتٍ عمياء وميكانيكيـة. رُغم أنّ هيوم قد سـبقَ داروين زمنيًـا، إلا أنّه يُمكنُ إدراك القوة الكاملـة لاعتراض هيوم حينما نتناوله على ضوء نظرية التطوُّر التابعة لداروين. حينما يتمُّ تفسيرُه طبيعيًا، يمنحُ التطوُّر الداروينيّ تفسيرًا عن النظام في الكون يُنافِسُ التفسيرات الإيمانية. وفقًا لبيان داروين، فإنّ الحقائق المتعلِّقة بالنظام في الكون «على سبيل المثال، من قبيل أنّ المخلوقات مُتكيِّفة بشـكلٍ جيـدٍ للغاية مع البيئات التـي تعيشُ فيها، أو أنّ أعضاء المخلوقات تتمتّعُ بالتنسـيق المتبادل- تُفسَّر عبر وقوع تغيُّرات عشوائية ومبدأ -بقاء الأصلح». من دون الدخول في التفاصيل، تتمثّلُ الفكرة الأساسية فيـما يلي: يحصلُ عددٌ مُحددٌ من التغيُّرات العشـوائية في الطبيعـة. (وفقًا للتعابير المعاصِرة، ثمّة طريق شـائع لحصول هذا التغيُّر وهو من خلال التهجين الوراثيّ الذي يحصلُ حينما تنقلُ الكائنات التي تتكاثرُ جنسيًا موادها الوراثية إلى ذريتّها.) حينـما يحصلُ تغيُّرٌ يمنحُ مخلوقًا ميزةً ما على مُنافسـيه، سـوف يكونُ من الأكثر احتـمالًا أن يبقـى حيًا إلى عُمر التكاثـر وبالتالي يتمكّن من نقـل التغيُّر الإيجابي (المشـفَّر في تكوينه الوراثي) إلى ذريّته. حينما يُمنحُ وقتٌ كافٍ، فإنّ ما يَظهرُ أنّه تصميمٌ يُمكنُ أن يُفسَّر ميكانيكيًا. من الواضح أنّ شُهرة نظرية التطوُّر-أكثر من أيّ شيءٍ آخر- هي التي قد أتلفتْ تدريجيًا مصداقية الدليل الغائي التقليدي.

يُمكنُ تقديمُ ثـلاثَ اتّجاهاتٍ للردّ على هذا التحـدّي التطوُّري. أولًا، قام

البعضُ بمهاجمة نظرية التطوُّر نفسها بشكلٍ مباشر، مُحتجّين أنّ نمط الخَلق الإلهي «من الصِّفر» يُوفِّرُ تفسيرًا علميًّا أسمى. هذا هو الموقف الذي اتّخذه البعض ممّن ناصَرَ تعليم «علم الخَلق[1]» كبديلٍ للتطوُّر. يتمثّلُ اتّجاهُ الرد الثاني في الاعتراف بأنّ عمليةً تطوُّرية قد حصلت، ولكن مع الاحتجاج بأنّه لا يُمكن فهم هذه العملية أو تفسيرها بشكلٍ ميكانيكيٍ محض. التغيُّر التصادفي والانتقاء الطبيعي هما غير كافيَيْن لتفسير النظام الذي تطوّر. بدلًا من ذلك، يبدو من الأكثر معقولية أن ننظرَ إلى العملية على أنّها عملية مُوجَّهَة، على الأقلّ عند نقاطٍ مُحدّدة، مِن التصميم الذكيّ.

أمّا الردّ الثالث فهو يعترفُ بصحّة النظريات الداروينية أو الداروينية الجديدة كتفسيراتٍ علميةٍ للنظام الموجود في الكَون، ولكنّه يتساءل عمّا إذا كان لا يزال هناك حاجة إلى تفسير نهائي. التفسيرات الميكانيكية والتفسيرات الغائية/ المبنيّة على النظام ليستْ دائمًا غير مُتناغِمة. إذا قامَ الشخص الذي يرغبُ بتحقيق نتيجةٍ ما -فلنقل صناعة الأحذية- بتصميم آلةٍ تُحقِّقُ تلك النتيجة، فثمّة نوعَين مُمكنَين من التفسير. يمكنُ أن يقومَ أحدُهم بتفسير ظهور الأحذية ميكانيكيًا، من جهة عمل الآلة، ولكن بالطبع تعملُ الآلة بالنحو الذي تعملُ فيه لأنّها وسيلة لتحقيق النتيجة؛ فقد صُمِّمتْ لتحقيقها. وعليه، فإنّ تفسيرًا أكمل للنتيجة على ضوء هدف صانع الآلة هو مشروعٌ أيضًا. ليس من قبيل الصدفة أن تُحقّق الآلة نتائجها المفيدة.

بطريقةٍ مُماثِلة، قد يدّعي المدافِع عن الدليل الغائيّ أن عملية التطوُّر -حتّى ولو كانت عمليةً ميكانيكية- هي ببساطة الوسيلة التي يُحقِّقُ من خلالها الله، أي المصمِّم الذكيّ، أهدافه. إذا كانت عمليةُ التطوُّر تحصلُ فعلًا، فإنّها تحصلُ

1. creation science

فقط لأنّ قوانينَ الطبيعة تعمــلُ بالطريقة التي تعملُ بها. هذه القوانين هي بحدِّ ذاتها مثالٌ واضحٌ عن النظام الذي تكونُ حصيلته القصوى نظامًا مُفيدًا. وعليه، يُمكنُ أن يدّعي المدافِع عن الدليل الغائي أنّ التطوُّر لا يُقلِّلُ بأيّ نحوٍ من الأنحاء من وجود النظام المفيد في الكون أو الحاجة لتفسـير ذلك النظام. وعليه، تُساهِمُ عملية التطوُّر ببساطةٍ في زيادة فهمنا للوسائل المعقَّدة والإبداعية التي يُحقِّقُ الإله المصمِّم أهدافَه من خلالها.

أثناء تقييم هذا النوع الثالث من الردود، السـؤالُ الذي ينبغي أن نسأله هو: هل إنّ النظام الأساسيّ للكون –القوانين الطبيعية التي عملتْ لتحقيق التصميم الظاهـريّ في الطبيعة (لو كان التطوُّر صحيحًا)– هو حقيقة محضة [غير محتاجة إلى التفسـير]؟ يبـدو واضحًا أنّ قوانـين الطبيعة والثوابت الماديـة (مثلًا: كُتلة الإلكـترون، سُرعة الضوء، ثابت بلانك، ومـا إلى ذلك) هي ممكنة، فيمكن أن تكـون مُختلفة. لماذا إذًا نملـكُ القوانين التي نملكها؟ يبـدو أنّ نقّاد الدليل هم مُجـبَرون على أن يدّعـوا عدم إمكانية تقديم أيّ تفسـير، ولكن في نظر المدافِعين عن الدليل فإنّه يبدو تعسفيًا وغيرَ معقولٍ أن يُقال بأنّ هذه القوانين هي ببساطةٍ حقائق محضة.

يبدو أنّ التطوّرات الأخيرة في الفيزياء النظرية تُعزِّزُ رفضَ المدافعين. علماءُ الفيزياء في يومنا الحالي هم قادرون على أن يُجروا حسـاباتٍ تتعلّقُ بالكيفية التي كان ليبدو عليها واقعُ الكون، من جهاتٍ مُحدَّدة، لو كان واحدًا أو أكثر من هذه القوانين أو الثوابت الفيزيائية مُختلفًا. ما يُخبرنا إيّاه هؤلاء العلماء هو أنّه لو كانت بعضُ القيم الحسـابية المحدَّدة مُختلفة ولو بشكل طفيف، فإنّ ظهورَ الحياة –من خلال الوسـائل التطوُّرية أو غيرها من الوسائل الطبيعية القابلة للتصوُّر– كان

ليكونَ مُستحيلًا. في الواقع، إنّ احتمالات حدوث كَونٍ واحدٍ يُصادِفُ أنّه يمتلكُ مزيجًا من هذه القِيم الحسابية التي تجعلُ بروزَ الحياة أمرًا مُمكنًا هي ضئيلة للغاية. لهذا السبب، يبدو في نظر كثيرين أنّ الكون قد «ضُبِطَ بدقّة»: أي إنّه قد صُمِّمَ عن قصدٍ للظهور للكائنات الحيّة كأنفسنا (في النهاية). جدّدتْ حجج الضبط الدقيق[1] نشاطَ النقاشِ حول الحجّة المبنيّة على التصميم التي اعتبَرَ كثيرون يومًا ما أنه تمَّ القضاء عليها بنحوٍ حاسِمٍ من قِبل نظرية التطوُّر الداروينية.

لم يبقَ نُقّاد حجّة التصميم «الجديدة» من دون تقديم رد. أشارَ بعضُهم أنّه رُغم أنّ احتمال امتلاك كَونٍ واحدٍ للقيم الحسابية «الصحيحة» التي تُتيحُ نشوءَ الحياة هو بالفعل ضئيلٌ للغاية، ولكنْ لو وُجِدتْ أعدادٌ كبيرةٌ للغاية من الأكوان الفعلية «ربما أعدادٌ كبيرة لانهائية- وكلّ واحدٍ منها يملكُ قوانين طبيعية وثوابت فيزيائية مُختلفة، فإنّه سوف سيكون حتميًا تقريبًا أن يملكَ كَونٌ واحدٌ على الأقلّ التركيبة «الصحيحة» التي تسمحُ للحياة بالبروز فيه. (ذلك الكَون بالطبع هو كَوننا) ثمّة طُرُق مُتعدّدة لكي يفوز هذا الاحتمال: لعلّ تاريخ الكَون يتمثّلُ في دائرةٍ دائمية من انفجارٍ كبيرٍ تبعه (مع الوقت) انكماشٌ كبيرٌ تبعه بدوره انفجارٌ كبيرٌ وهلمّ جرًّا إلى ما لا نهاية، وكلّ انفجارٍ كبيرٍ يُنشيءُ بشكلٍ عشوائيٍ مجموعةً مُختلفة من القوانين والثوابت الفيزيائية للكَون اللاحق. أو لعلّ الكَون الذي نعيشُ فيه هو فقط واحدٌ من عددٍ لانهائيٍ من الأكوان المنعزِلة سببيًا ومكانيًا- زمانيًا، وكلّ واحدٍ منها يملكُ مجموعته الخاصّة والفريدة من القوانين والثوابت الفيزيائية. وما دام لا يُمكنُ استبعادُ هذه الاحتمالات، تبقى حجّة التصميم غير قطعية.

1. fine-tuning arguments

ولكــن أن يُقال بــأنّ الحجّة غير قطعيــة لا يعني أن يُقال بأنّهــا تفتقدُ للقوّة الإقناعية عقليًا. مرةً أخرى، تُظهِرُ الحجّة المبنيّة على التصميم -كأيِّ حُجّةٍ إيمانية جيِّــدة- أنّ هناك ثمنًــا ينبغي دفعُه في حال رُفِضت نتيجتهــا. الثمن الذي يبدو أنّ الملحِــد مُجبَرٌ على دفعه، في هــذه الحالة، هو التالي: يجــب أن يدّعي أنّه يوجدُ في الواقع، بشــكلٍ أو بآخر، عددٌ لانهائيٌ من الأكوان الفعليّة، وكلّ واحدٍ منها يملــكُ قوانين فيزيائية وثوابــت مُختلفة. إضافة إلى أنّ هــذا الادّعاء يبدو جريئًا للغاية، تتمثّلُ المشكلة مع هذا الرأي في أنّه -في الوقت الحالي على الأقلّ- تخمينيٌ بشــكل كبير وغير مُدعَم بالأدلّة التجريبية. هذه مُشكلةٌ خطيرة يُواجهها أنصارُ مذهب الطبيعة الذين يفتخرون عادةً بأنّهم يتمسّــكون بنظرةٍ كونيةٍ علمية تمامًا. يجدُ أنصارُ مذهب الطبيعة أنفسَهم هنا مُضطّرين لتقديم ادّعاءٍ حول العالَم الماديّ لا يحظى بأيِّ دعمٍ تجريبيٍ بل تُحفِّزه أســبابٌ أيديولوجية (على وجه الخصوص، الرغبة بالحفاظ على المذهب الطبيعي الذي يتبنّونه). بهذه الطريقة، يدفعُ الدليلُ الغائــيّ أنصارَ مذهــب الطبيعة إلى أن يُجــروا «إعلانًا إيمانيًا» يُكــذِّبُ إلتزامهم الظاهريّ بالعلم الطبيعيّ. يبدو أنّ هذا هو ثمنٌ غالٍ فعلًا.

فضــلًا على ذلك، مــن الأرجح أنّ حجّة الضبط الدقيق ســوفَ تُحافِظُ على أغلب قوّتها حتّى ولو وُجِدَ دليلٌ تجريبيٌ مهم يدعمُ نظرية تعدُّد الأكوان. الأمر هو كذلك لأنّه بناءً على النماذج الأكثر معقولية من النظرية، يُوجد (أو قد وُجِدت) عمليةٌ ما تُنتِجُ أكوانًا مُتعدِّدة. ولكن بناءً على هذا الرأي، يجب أن تكون الظروف صحيحة بنحوٍ دقيقٍ لكي يقدرَ «مُنتِــجُ الأكوان المتعدِّدة» على «العمل». ولكن ينبغي أن نسألَ لماذا وُجِدت هذه الظروف المؤاتية نظرًا إلى إمكانية وجود ظروفٍ أخرى غير مُؤاتية بدلًا من ذلك (وفي هذه الحالة لا تطرأ الأكوان المتعدِّدة)؟ فيما

يبدو، تبقى الحاجة التفسيرية للجوء إلى التصميم حتّى بناءً على نماذج مُحدَّدة من فرضية الأكوان المتعدِّدة. وعليه، نستنتجُ أنّه رُغم أنّ الدليل الغائيّ ليسَ حاسِمًا -بمعنى أن يكون مُقنِعًا من الناحية العقلية للجميع- إلا أنّه يملكُ قوّةً كبيرةً إن فُهِم كمحاولةٍ لإظهار معقولية فرضية وجود المصمِّم.

ولكن ماذا عن المجموعة الثانية من الاعتراضات التي قدّمها هيوم؟ كما ذكرنا سابقًا، اعترضَ هيوم أيضًا على الدليل بناءً على أُسُسٍ دينية. يقولُ هيوم إنّ الدليل لا يُظهِرُ فعلًا أنّ إله الإيمان موجود. قد يفشل مُصمِّم العالَم بطرقٍ عديدةٍ في أن يُشبِه الله الموجود في المسيحية واليهودية والإسلام. قد لا يكونُ المصمِّم مُطلقًا واقِعًا من حيث القوّة والعلم والخير، وقد يكونُ محدودًا بطرقٍ مُتنوِّعة. بالفعل، يقولُ هيوم، قد لا يكونُ المصمِّم كائنًا واحدًا بل لجنة.

ردَّ ريتشارد سوينبورن على هذه الاعتراضات عبر الادّعاء بأنّ فرضية الإيمان بالتوحيد هي أكثر ترجيحًا من فكرة «الإله أو الآلهة المحدودة» التي يطرحها هيوم وذلك لأنّ التوحيد هو تفسيرٌ أبسط. حقيقة أنّ قوانينَ الطبيعة التي تُحدِثُ النظامَ في الكَون تبدو عامّة تُشيرُ إلى وجودِ سببٍ واحدٍ وليسَ أسبابًا مُتعدِّدة. يقولُ سوينبورون إنّه من الأسهل افتراضُ وجود إلهٍ يملكُ القوّة والعلم اللانهائيَّين بدلًا من إلهٍ يملكُ قوىً عظيمةً ولكن محدودة. تُثيرُ فرضية الإله المحدود حتمًا السؤال حول سبب امتلاك هذا الكائن لمقدار القوة والعلم اللَّذَين يملكهما، وهو سؤالٌ غير قابل للإجابة.

ولكن حتّى لو كان سوينبورن مُحقًا، فإنّ اعتراضات هيوم مع هذا تُقلِّلُ من قطعية نتيجة الدليل الذي كانَ مرجَّحًا فقط في البداية. ولكن هذا يُظهِرُ ببساطةٍ أنّ الدليلَ الغائيّ، كما الدليل الكونيّ، هو محدودٌ من حيث المعلومات التي يُقدِّمها عن

الله. بالكاد يكونُ الإنسانُ العاقل الذي قبِلَ بالدليل راضيًا بمعرفة الله التي يحصل عليها من خلاله، وسوف يكونُ مُتلهِّفًا لاكتساب معرفةٍ إضافية بالله. حتّى لو كان اللاهوت الطبيعيّ ناجحًا، فليسَ من المفترَض أن يمنحَ نوعَ المعرفة التفصيلية بالله التي يتمُّ تحصيلها من حالات الوحي الخاصّة الممكنة والتجارب الدينية.

ولكــن إلى حدٍّ ما، تُلغــي نقائصُ الدليلَين الكوني والغائــيّ بعضهما بعضًا. يستنتجُ الدليلُ الكونيّ أنّ واجب الوجود الذي هو سبب حدوث الكَون ينبغي أن يكون موجودًا، ولكنّ الدليل لا يُبيِّنُ ظاهريًا أنّ هذا المســبِّب ينبغي أن يكون إلهًا شــخصيًا. أمّا الدليلُ الغائيّ فيســعى إلى أن يُظهِر أنّ مُســبِّب الكَون ينبغي أن يكــون ذكيًا وبالتالي شــخصيًا، ولكنّ الدليل لا يُبــيِّنُ ظاهريًا أنّ هذا الكائن ينبغي أن يكون واجب الوجود. من الواضح أنّ الدليلَين يُكمِّلان بعضهما بعضًا، وبالتــالي يُمكنُ النظر إليهما ليسَ كدليلَين مُتفرّقَين بل كجزئَين من دفاعٍ عامٍ عن معقولية الإيمان بالله.

قد يدّعي أحدهم طبعًا أنّ استنتاجات الدليلَين تُشير إلى كيانَين مُختلفَين وأنّه لا يُمكن بالتالي توظيفُ الدليلَين معًا. يمكن الردّ هنا، تماشيًا مع سوينبورن، أنّ هذا قد يبدو ممكنًا من الناحية المنطقية ولكنه غيرَ معقول. يبدو أنّه من المســتبعَد أن نفترض أنّ الكائن المســؤول عن وجود النظام الطبيعي نفسه لن يكون أيضًا مسؤولًا في النهاية عن الصفات المميّزة والمنتشِرة لهذا النظام.

## المصادر

1. Collins, Robin, "A Scientific Argument for the Existence of God: The Fine-Tuning Design Argument," in Reason for the Hope Within, ed. Michael Murray, Grand Rapids: Eerdmans, (1999): 47-75.
2. ———, "Evidence for Fine-Tuning," in God and Design: The Teleological Argument and Modern Science, ed. Neil Manson, Milton Park, U.K.: Routledge, (2003): 178-99.
3. Hume, David, Dialogues Concerning Natural Religion, ed. Norman Kemp Smith, Indianapolis: Bobbs-Merrill, 1947.
4. Inwagen, Peter van, Metaphysics, 3rd ed., Boulder, Colo.: Westview Press, 2009.
5. Ratzsch, Del, "Saturation, World Ensembles, and Design", in Faith and Philosophy, 22, no. 5, (2005): 667-86.
6. Rowe, William L., and William J. Wainwright, Philosophy of Religion: Selected Readings, 3rd ed., New York: Oxford University Press, 1998.
7. Swinburne, Richard, The Existence of God, 2nd ed, Oxford: Oxford University Press, 2004.
8. Taylor, Richard, Metaphysics, 4th ed, Englewood Cliffs, N.J.: Prentice Hall, 1992.
9. Tennant, F. R., Philosophical Theology, Cambridge: Cambridge University Press, 1928-1930.